

مول أدب الراقص

بين القديم والجديد

للأستاذ محمد أحمد العمرأوى

— ٣ —

لو كان الراقص حياً وعدا عليه عاد في نفسه وأدبه كما عدا سيد قطب ما تحرك بالدفاع قلم غير قلم الراقص . وما أظن سيد قطب كان يتحرك إذ ذاك بطلب للراقص أو تنقص لأدبه . أما وقد مات الراقص فقد ظن سيد قطب أنه يستطيع أن يبدو على الراقص ويسخر من أدبه باسم النقد ، وهو آمن أن يوقه ذلك في ورطة مهلكة كالتى كان يقع فيها لو أنه تناول أدب الراقص في حياته ، يمثل القلم الذى تناوله به بمدامته ، لكن الأدب الكبير الحق ، ككل شيء حق كبير في الحياة ، يدفع عن نفسه بنفسه هدوان الماديين حتى يمد موت صاحبه . ودفاع الحق عن نفسه له مظهران : مظهر إيجابي تقف فيه عناصر الصواب والصدق والخير تجادل عن نفسها عند كل ذى عقل وقلب ، وتجنل منه حكما يحكم لصاحبها ولو بين نفسه ونفسه ؛ ومظهر سلبي لعله أحجب المظهرين وأخفهما بطبيعة الحق ، يتجلى في تورط خصام الحق في أغلاط ومزالق ومهاو يتردى فيها من حيث يحذر ومن حيث لا يحذر ، فيكون خصام الحق بذلك هو نفسه الذى ينتقم للحق من نفسه بما يكشف من هوارها ويبدى من مقاتلها

والأغلاط التى تورط فيها سيد قطب بالمدوان على الراقص في نفسه وأدبه كثيرة لم يكن ما بيناه في المقال السابق إلا أمثالا . ويؤذن النقد بها في أول ما يطالع من تلك الكلمات تطرف صاحبها البالغ في رأى . والتطرف هو دائما دليل الهوى وقندان الأثران في الحكم إن اغتفر للعامة فلا يمتد فيه الخاصة . فالمقاد عند الكاتب أديب الطبع القوى والقلب ، ولا طبع ولا قلب للراقص . والمقاد عنده لا يليق به لقب أمير الشعراء لأنه المسافة بينه وبين شعراء عصره أكبر من المسافة بين الأصم والسوقة ؛ ومعنى هذا أن الراقص الشاعر لا يبلغ أن يكون في السوقة حين يكون المقاد في الأصم .

ويزداد شطط الكاتب كلما تقدم به الشوط . فالمقاد يكتب عن عقيدة في الأدب والراقص يكتب عن غير عقيدة . والمقاد يخلق حتى المبادئ الخلقية ، والراقص لا يستطيع أن يخلق شيئا . ونحن نظن أن الراقص رحمه الله لم يكن يسره أن تبلغ به القدرة حد خلق المبادئ الخلقية ، لكن كان يسره من غير شك أن يكون له على خلق غير المبادئ الخلقية شيء من القدرة

والمقاد بعد ذلك هو أديب الدهن المشرق (مقال ٦) والطبيعة المتازة والنفس الرحبة والمواهب التى تنتفع بالثقافة وتملأ على حدود الثقافات ؛ أما الراقص فهو أديب الدهن المريض الخلابى المثلث غير ذى النفس ولا الثقافة . ثم المقاد فوق ذلك وقبل ذلك هو الكاتب الجبار الذى بقى « وتضمض خصومه ووراءهم قوة العدد وقوة الحكم وقوة المال وقوة الماضى الوطنى وكل قوة مأمولة في الوجود » ؛ أما الراقص فهو أحد خصوم المقاد الذين لم يبن عنهم حيال جبروته التجاؤم إلى الدين وهو أقوى أثرأ من السياسة وأكثر اتباعا ، فكانوا رغم استماتهم بالدين في عارية المقاد من القلوب . فصاحبنا كما ترى لا يتشكك في أن المقاد هو هزم الوفد وهو هزم غير الوفد ممن استعان في خصومته بسلطان السياسة أو الدين . وتقوم غاشية الهوى دون عقل صاحبنا فلا يصير العوامل المتعددة القوية التى كان مجموعها أقوى من سلطان الوفد فانهزم ، ولا يذكر أن الحركة التى انهزم الوفد فيها كان أمضى سلاحا سلاحا دينيا ، وكان من أكثر الناس استمالا له حين جد الجد المقاد

إلى هذا الحد من الأسراف والفلة بلغ بصاحبنا هواه . وجدير لمن يتصدى للحكم بين اثنين هذا مبلغ إسرافه فيهما على نفسه أن ينقل حسنات أحدهما ولا يصير سيئات الآخر ، وأن يخرج النقد من قلبه شيئا آخر أو أقل خلقا آخر ينكره الحق ولا ينكره الباطل لئلا الهوى عليه وقلة أثر العقل فيه

لكن صاحبنا لا يعبه أن ينفه منبه إلى ما في إسرافه ذلك من خطر عليه هو : على نزاهة حكمه وحرية رأيه واستقلال فكره وحيوية نفسه وسلامة طبعه ، فيرد على من نهه رد الشيطان الحقنى^(١) رايما إياه بتشكف التورع والتعطس تارة ، وبصدم

فناقدنا لم يقترف في نقده جرماً أقل من كيله بمكيالين وتفكيره بمنطقتين في حكومته بين الطرفين في الموضوع الواحد والنقطة الواحدة ، فله ولصاحبه منطق ومكيال ، ولخصومهما في نفس الموقف ونفس الموضوع منطق آخر ومكيال آخر . والقاعدة في ذلك — على ما يظهر — أن يكون الحكم دافعاً لمن يجب على من ينفذ . وإليك من ذلك أمثلة في غير إطالة ولا استقصاء

يرى الكاتب^(١) أن المريان أساء تقدير المقاد لأنه لم يختلط بالمقاد أولاً ولم تنفتح نفسه لأدب المقاد فيفهمه ثانياً . والكاتب يقر بأنه لم يختلط بالرافض وبأنه يكره أدبه . ولا يخطر بباله مع ذلك أنه أساء تقدير الرافض لنفس السبب الذي من أجله رأى أن المريان أساء تقدير المقاد

ويرى^(٢) الكاتب أنه يبنى في تحديد معنى السب والشتم أن يطبق علم النفس وعلم الأخلاق على العالم الأدبي فلا ينظر إلى الألفاظ ولكن إلى أسبابها وملابسها . ولا يلتبس للرافض عذرا من هذا الباب الذي فتحه لالتباس المذد للمقاد

ويذكر^(٣) المقاد في قصوته على الرافض لأنه يصور على الأقل ما يمتدح هو أنه حقيقة ، ولا يمدح الرافض بمثل هذا المذد في قصوته على المقاد

ويذكر^(٤) عن المقاد فيما أتى إلى غلوف باعتقاد المقاد عظم الفرق بين نفسه وبين غلوف ، وحنقه أن يجترى مثل غلوف على نقده . وقطب نفسه مستمداً للثورة والحق إذا تناول أدبه متناول بمثل ضيق الفهم واستغلاق الشعور اللذين تناول بهما غلوف أدب المقاد . أي يمتدح عن نفسه وصاحبه في غضبهما لأدبهما بحسن رأيهما في نفسيهما وسوته في غيرهما ، وهو باب من المذد يوسع كل الناس لكنه لا يتسع للرافض ومن معه وإن كان الرافض أجدر أن يثور لا نكار المقاد اعجاز القرآن كما حكاها المريان

ويشتب^(٥) على المريان في صدد ما كتب من تلقيب المقاد بأمر الشعراء أنه سمح لصداقته للرافض أن تعدو على التقدير الصحيح للمقاد ، ولا يشتب على نفسه هو أن سمح لصداقته أو محبته للمقاد أن تعدو على التقدير الصحيح للرافض . وبعبارة أخصر ، يتهم المريان في تقديره المقاد لصداقته للرافض ، ولا يتهم نفسه في تقديره

التفريق بين الكيف والكم ولا بين الصدق و « النخع » قارة أخرى ، زاعماً أنه فيما قال إنما يتبع البرهان والدليل ، وإلى الخطر الذي يحيط ببرهانه هذا ودليله أريد تنبيهه ، فلم يزد على أن جاء بدليل آخر على إسرافه في التشيع حين لم ينتبه إلى احتمال وقوع الخلل في رأيه ومنطقه من جراء غلوه ، وحين زعم لنفسه وللناس أن رأيه ذلك إنما بناء على البرهان والدليل

إن الناقد الحق كالقاضي العدل ، من أظهر صفاته وأوضح أماراته أن يطبق قانونه تطبيقاً واحداً على المتخاصمين . قد يكون القانون الذي يطبقه القاضي مميماً في ذاته ، لكن القاضي لا يسأل في المادة من ذلك وإنما يسأل عن التطبيق . وقد يخطئ القاضي في التطبيق لكنه على أي حال يجب ألا يخطئ الروح روح الانصاف والتسوية بين الناس عند تطبيق القانون . والناقد كالقاضي في هذا الشرط شرط وجوب التزام روح الانصاف والتسوية بين الخصوم عند تطبيق مبادئ النقد ، إلا أن الناقد له على القاضي ميزة التمتع بقسط غير قليل من الحرية في اختيار مبادئه ومقاييسه في حين أن القاضي لا يملك شيئاً من الحرية في اختيار القانون الذي يحكم به بين الناس . فالناقد والقاضي متساويان في تيمة الروح التي به يطبقان ما يسدهما من أصول وقواعد ، لكن تيمة اختيار هذه الأصول والقواعد إذا أعفى منها القاضي فلا يمكن أن يعفى منها الناقد كل الاعفاء ، بل ولا بعض الاعفاء عند التحقيق

والقواعد التي جرى عليها الكاتب في المفاضلة بين الرافض والمقاد وفي محاجة المتصرين للرافض ممكن استنباطها في سهولة من تضاعف كلامه ، لكننا لا نريد الآن أن نحاسبه على قواعده ومبادئه ومبلغها من الصحة والدقة ، ولكن نحاسبه الآن على الحد الأدنى من تيمة الناقد وهو القدر المشترك بين الناقد والقاضي من تيمة التسوية بين الخصوم في تطبيق الأصول والقواعد مهما تكن تلك القواعد والأصول

لكننا لا نكاد نشرح في قياس كفايته في النقد وزايفته في الحكم بهذا الحد الأدنى الضروري حتى يتضاءل ويتزوى عنه سجل النقاد كما يتضاءل القاضي ويتزوى إذا حاكم الخصمين في المسألة الواحدة إلى غير قاعدة أو مادة واحدة وغلب ذلك عليه في قضائه بين الخصوم

الرافى مع ما يعلم من بفضه الرافى ومحبته المقاد
ويميب^(١) على الرافى إتيانه في شعره بالمعاني المألوفة المألوفة
التي سبق إليها الشعراء مثل :

إن يقض دين ذوى الهوى فأنا الذى بقيت ديونه
ومثل :

تضنى المحب كأنما أجفانها ألفت عليه فتورها وملامها
يرى ذلك من ناحيته تقليداً من الرافى لشعراء الدول المتتابعة
والماليك في مصر وشعراء أواخر العهد العباسي ١ وبراهما من
ناحية أخرى معاني مطروقة « يباع كل عشرة منها بقروش في
هذه الأيام » . حتى إذا قال الرافى :

يا من على الحب ينأنا ونذكره لسوف تذكرنا يوماً ونسأكا
وهو كما نرى معنى على أفواه الناس سبق إليه القصص القديم
ولا بد أن يكون سبق إليه كثيرون من شعراء الدول المتتابعة
أو شعراء غير الدول المتتابعة — حتى إذا قال الرافى هذا لم يعبه
عليه ولم ينتقصه من هذه الناحية ١ وهل تدرى لماذا ؟ لأنه يعتقد
أن الرافى أخذ البيت عن المقاد^(٢)

ويميب^(٣) على محمود شاكر نوصه في تعيين مذهب المقتدرين
من شعراء العربية في المصور المختلفة في الفرض الذى كان بسده،
بعد ذلك منه جرياً « على النسخ الخالي من كتب النقد لقدامة
وأبي هلال العسكري ومن يتقلان عنهما من تتبع المعنى تبعاً
زمنياً ، وحسبان كل شاعر متأخر أخذ هذا المعنى عن شاعر
متقدم ... » وهو مذهب يظن الكاتب به « القصور والجود »
ومع ذلك فظنه هذا لم يمنعه من حسابان الرافى قد أخذ بيته
المذكور آنفاً عن المقاد كما رأيت . ولعل عذره في ذلك أن
الرافى والمقاد كانا متعاصرين حين قيل ذلك البيت فلا سابق
منهما ظاهراً في الزمن ولا مسبوق

ثم يرى ناقداً أن « الحكم على النيات عمل صعب لا يصح
الاستخفاف به » إذا كان الأمر متصلاً بالمقاد ونية طه حسين
في تلقيه إياه بأمر الشعراء ، أما إذا كان الأمر متصلاً بنية الرافى
في خصومته للمقاد فنحن نرى يزول المسر ويجوز الاستخفاف

وتتدخل نظرية فرويد والتحليل النفسي في الموضوع فتجعل
كوامن الانسان تظهر من فلتات اللسان ، وتكشف قلم الرافى
في رسائل الأحزان عن الرافى في أعماقه ، وتنبئ « ناقداً ذا التحليل
والتحليل أن « أهم أسباب الحقد في نظر الرافى وأظهر دوافعه »
هو « فوقان ؟ إنسان على إنسان في التناج الأدبي » ، وتجمله
يصيح : « وهكذا كان الرافى مع المقاد » ١

هذه ثمانية مواقف في الخصومة القائمة حول أدب الرافى
والتي أثار غبارها سيد قطب وجعل نفسه فيها ناقداً وحكماً ليس
لأحد الطرفين في موقف منها كلام إلا ويصح أن يقوله الطرف
الآخر ، ولا يمكن أن يستند في الحكم لأحدهما على مبدأ أو أصل
أو قاعدة إلا ويمكن الاستناد على نفس هذا المبدأ أو الأصل
أو القاعدة في الحكم للآخر لما بين الطرفين في كل موقف من
تمام التشابه . لكن صاحبنا واسع الخيلة في النقد ، يستطيع أن
يفرق بين التشابهات في الخصومة وأن يطبق المبادئ والأصول
والقواعد بحيث تأتى الأحكام كما يريد ، فيخرج أحد الخصمين
دائماً ظافراً والآخر خاسراً وليس بيد أحدهما من الحجة ما ليس
بيد الآخر إلا أن الظاهر محبوب والخاسر مكروه لدى ناقداً
المجد الذى لا يمجبه في النقد مذاهب القدماء

ترى كيف أمكن لهذا الناقد أن يخطئ في تطبيق مبادئه
هذا الخطأ ويفرق بين الخصمين في المواقف المتشابهة هذا التفريق
إن لم تكن عاطفته قد جمحت به وجملته يمنح عن صراط النقد
السوى والتفكير الحر المترن ذلك الجنوح الكبير ؟

إننا قد بدأنا نشفق على هذا الناقد الناشئ من هول ما جرى
على نفسه بتسخيره عقله لهواه في أمر كبير كالذى تصدى له .
ولو علمنا أن هذا القدر يكفيه ليناً إلى أمر الله لوقفنا عند هذا
الحد رقياً به وإبقاء عليه فإن فيه عناصر ذات قوة لا يحول بينها
وبين النفع والخير إلا أنها تحاول أن تشق لنفسها مجرى غريباً
آخر تضيق به حتماً بدلاً من أن تنضم إلى النهر نهر العربية الكريم
الواسع الذى أجراه الله لها بالقرآن .

إن هناك في تاريخ العربية ، جداول ضلت الطريق إلى هذا
النهر فضاع ضيفها وكوّن قوياً منافع الأدب العربي ومآسته
ودمته الخضراء الوخيمة . وأدب الرافى رحمة الله عليه لم يخطئ

(١) مقال ٣ ، رسالة ٢٥٤

(٢) مقال ٤ (٣) مقال ٥